النقــد الثقــافي

تمهيد :

اشتهر النقد الثقافي باعتباره مبحثا حيويا داخل الدراسات الثقافية ، بما أحدثه من تغيير مهم في مناهج تحليل الخطاب واستثمار المعطيات النظرية والمنهجية لحقول معرفية متداخلة كالسوسيولوجيا والتاريخ والسياسة والفلسفة والآداب .

والثقافة مفهوم واسع في حدوده الدلالية ، وهو متباين ومختلف فيه من مجتمع إلى آخر وتبعا لذلك تعددت تعريفاته منها :

تعريف " ادوارد تايلور" الذي يقول فيه : " الثقافة هي ذلك الكل المتكامل الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاقيات والقوانين والأعراف والقدرات الأخرى ، وعادات الإنسان المكتسبة بوصفه عضوا في المجتمع " .

و هي عند " مالك بن نبي" : " مجموعة من الصفات الخلقية ، والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته ، وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه " .

و يمكن القول إن الثقافة هي المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقوانين والأعراف الخاصة بمجموعة معينة من الناس تؤلف مجتمعا أو أمة ، وقد يوجد في المجتمع الواحد ثقافات متعددة ، قد تكون متجانسة أو متباينة وأهم سماتها كونها : إنسانية ، مكتسبة ، تطورية ، تكاملية ، استمرارية وانتقالية .

مفهوم النقد الثقافي :

يوحي مصطلح النقد الثقافي بأنه نشاط فكري يتخذ من الثقافة وشموليتها موضوعا له ، ولكنه لا يعني نقد الثقافة ، إنما يعني قراءة الثقافة للبحث عن الأنماط المضمرة التي تختبئ تحت عباءة الجمالي في النقد الأدبي ، فهو يعتمد على أدوات النقد الأدبي المعدلة تعديلا ثقافيا .

و لم يعرف الغرب مصطلح (النقد الثقافي) (cultural criticism) إلا في فترتي السبعينات والثمانينات من القرن العشرين ، بعد أن عممه الناقد الأمريكي " فنسنت ليتش vincent leitch" و أبرزه في كتابه (النقد الأدبي الأمريكي سنة 1988) , علما أن الشائع قبل ذلك هو (الدراسات الثقافية) التي تعود نشأتها إلى مركز برمينغهام المخصص لهذه الدراسات التي شرع فيها سنة 1971 ، وإلى الجهود النظرية والتطبيقية الريادية لكثير من المفكرين في بريطانيا وفي صدارتهم " ريموند وليامز " و "ريتشارد هوغارت " " ستيوارت هول " و " إ.ب طومسون" .

يدرس النقد الثقافي بواسطة التحليل النقدي مجالات الفكر والفلسفة والآداب والظواهر الثقافية الشعبية و الثقافات المهمشة لإبراز القيم الإنسانية مع التركيز على النقاط السلبية كالضعف و التخلف ، كما يكشف عن العناصر الجمالية الكامنة داخل بنياتها .

و يرى النقاد أن النقد الثقافي ليس منهجا بين مناهج أخرى , أو مذهبا أو نظرية ، كما أنه ليس فرعا أو مجالا مختصا من فروع المعرفة ومجالاتها ، بل هو ممارسة أو فاعلية تتوفر على دراسة كل ما تفرزه الثقافة من نصوص ، سواء أكانت مادية أو فكرية ويعني النص هنا كل ممارسة. – قولا أو فعلا – تولد معنى أو دلالة

فهو ربط للنص بمحيطه الثقافي ، لكنه ليس مدرسة محددة المعالم ، ما جعله ممكن التغيير من ناقد إلى آخر باختلاف شخصية الناقد وثقافته وطبيعة النص وقضاياه .

النسق الثقافي :

النسق هو نظام بنطوي على استقلال ذاتي يشكل كلا موحدا يتناغم و ينسجم فيما بينه وهو أوسع و أشمل من مفهوم البنية لأنه قد يكون مغلقا أو مفتوحا ويولد أنساقا أخرى , و على سبيل المثال يوصف المجتمع بأنه نسق اجتماعي عام , ينتج عنه مجموعة أنساق فرعية انتظمت معه و شكلته لتولد عنه نسق سياسي و نسق اقتصادي و آخر علمي و ثقافي , لتنسج علاقاتها فيما بينها تفاعلا و تداخلا .

والنسق الثقافي هو أحد الأنساق الاجتماعية يعبر عن مجموعة من العلاقات المترابطة و المنسجمة قابلة للانتقال من جيل إلى جيل في ثقافة من الثقافات , كما يمكنها أن تكون

ظاهرة أو مضمرة أي تختفي في اللاوعي الفردي أو الجمعي ومن ثم فالنسق الثقافي هم مجموعة آليات معرفية وفكرية لفئة اجتماعية ما ، مترابطة ومتفاعلة تخص البمعارف والفنون والأخلاق والمعتقدات واللغة وغيرها ، وتتصف بالمرونة في الانتقال بين الأفراد والجماعات كما أنها سريعة التأثير في الخطابات الاجتماعية .

ويعد " ليفي شتراوس" من أوائل الذين نقلوا مصطلح (النسق) إلى الحقل الثقافي في دراسته (الانتروبولوجيا البنيوية) سنة 1975 .

بينما اقترح " أميرتو إيكو" مصطلح (الوحدة الثقافية) وهي وحدة دلالية سيميائية مدمجة في نظام (اجتماعي ثقافي) وقد تتجاوز هذا النظام إلى التفاعل بين ثقافتين .

وقد يكون هذا النسق أو الوحدة (كلاما ، موضوعا ، أفكارا ، قيما ، أحاسيس ، ايماءات أو سلوكات ...) ، فالنسق الثقافي ينطبق على مكونات الثقافة ومضامينها ، ولكن لا تعدو عنده المكونات والمضامين نسقا إلا حينما تتكرر وتترسخ ، فالأفكار والقيم والأعراف والإيديولوجيات ، حينما تتعزز داخل الثقافة وتتضمنها نصوصها ، حينئذ تصبح أنساقا تمارس فعلها إلى التأثير داخل النص الثقافي وخارجه .

والنسق الثقافي له مظهران في النصوص هما ، الظاهر المعلن والمضمر الخفي ، وهذان النسقان متلازمان ويتعارضان ويتناقضان ويتجادلان داخل النص الثقافي بحيث يكون النسق المضمر متخفيا خلف النسق الظاهر .

ومدار الاهتمام في التقد الثقافي هو النسق المضمر , أما النسق الظاهر فلا يولى من الاهتمام إلا بقدر ما يعد وسيلة للكشف عن المضمر المتواري خلفه .

القراءة الثقافية :

تراهن القراءة الثقافية كثيرا على معرفة القارئ بالثقافة وامتدادها داخل النصوص ، وتنيط بها دورا مهما في تأويل المعنى ، فمن أولويات القارئ وفق هذه القراءة الإلمام بعصور النصوص ومؤلفيها لأن ذلك يجعل مهمة كشف الأنساق أيسر بكثير مما لو فقد القارئ ذلك الإلمام .

فالمؤلف من وجهة نظر القراءة الثقافية حلقة وصل بين الثقافة والنص والقناة التي تمد من خلالها كل مضامين الثقافة لتقر في النص .

ولابد للقارئ مع ذلك من وعي باللغة ونسقيتها , فاللغة أساس المعنى ، وهي أول ما يواجه القارئ، وعليها المعول في الوصول إلى المضامين الثقافية .